الصراع الثقافي: إزاحة أم إزالة

العالم يعـج بثقافات مختلفـة ليس اليوم ولكـن منذ آلاف السنين، منذ باشر الإنسان بإقامة الحضارات، فكل حضارة لها طابع ثقافي مميز، ومن هنا يحدث (الاحتكاك) كانت (العزلة) تخفف الاحتكاك، لكن مع تطور وسائل (الاتصالات والمواصلات) زادت الاحتـكاكات وكـثرت، وقـد وجـدت الفيلسـوف الفرنسي (ميشيل فوكو) يتحدث في مؤلفه (نظام الأشياء) عن (الإزاحة المعرفيـة)[1]، ومـا يترتب عليهـا من (فراغ معـرفي)، وقد ربط بين عملية (التحول المعرفيـة) وبين وجود حالة من (التشرذم) في الفكـر الفلسفـي، ولاحظ: أن الرؤية الكليـة التي كانت تجمع (الكون والله والإنسان) قد تم (اختزالها) عبر مراحل وأحقاب زمنيـة، وذلك من خلال استخدام مفهـوم (الإزاحة المعرفية)، وهكـذا فقد أزاح العقل بالمفهوم الكانطي (العالم الخارجي) في مدة معينة، ثم أزاح (العالم المادي الاقتصادي) ثم أزاح (وجود الله وعـالم الميتافيزيقيا) في مدة أخرى، وأخيرًا جاء دور (اللغة والنص) ليزيحا (العقل والاقتصاد معًا).

وهكـذا تحول (خطاب ما بعد الحداثة) إلى اللغة، فوقع في أسارهـا حتى أضحى ذا (لهجة فردية شخصية) لا أحد يفهمها سوى المتحدث نفسه... ا.هـ.

(١) المرجع السابق ص (٤١٥).

هـذه الإزاحة أو الإزالة مهما تعـددت أليس (الصراع) هو الوسيلة أم التناسخ، كل جديد ينسخ ما سبقه ويحل مكانه، حتى يأتيـه الدور فيحـال على (التقاعد) والتقاعـد مصطلح ظريف جـدًّا فهو يتكون مـن (مقطعين) الأول (مـت) والثاني (قاعد) والشاعر يقول:

من لم يمت بالسيف مات بغيره تعددت الأسباب والموت واحد

الذي أفهمه من فكرة (فوكو) أن هناك صراعًا أو تصارعًا، الفائـز يدفـع الخاسر ويحـل مكانه، حتـى يأتيه مـن يدفعه أو يصرعـه أو يزيله أو يزيحه ويحتل مكانه، إنها سنة التداول التي أطلقها القرآن الكريم: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾.

فمـن يصل القمة في التحضر أو التقـدم أو الغنى أو الرقي يبقـى، مـا دام لا يجد من يزيحـه ويحل مكانه، فـإذا ضعف أو تخلـف جـاءه (السيل) وأبعـده، ليحل مكانـه (مستحق جديد) وهكذا، فيـا من يضربهم (التخلف) لا تيأسـوا، فدوركم قادم، متى أخذتم بأسباب التقـدم والرقي، ويا قادة العالم لا يبطركم مـا أنتم فيه، فالسيل سيجرفكم ويقتلعكـم من (القمة) ليطرح بكـم في القاع، هذه سنة الله تعالى في الكون، ولن تجد لسنة الله تبديلًا، فعلى الكل أن لا يبطر ولا ييأس: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾.

عندما تتصارع الحيوانات

لاحظت أن الحيوانات تعيش بسلام، لكنها تتصارع وتتعارك إذا حضر الطعام، وفي كندا نوع من الغزال قرونه مثل أغصان الشجر، إذا تصارع تشتبك (قرونه) ولا يستطيع فكها، فتكون نهايته أن يموت المتصارعان، وهما يشتبكان...

الإنسان يتصارع على الطعام وغيره، ولعل اختراعه للاستعمار هو لون من ألوان (الاستحمار) على حد تعبير د. علي شريعتي.

د. عبدالوهاب المسيري[1] يرصد جشع (السيد المستعمر) فهو لا يحارب ولا يتصارع من أجل الطعام، لكنه يسرق طعام الفقير، ويستعذب ذلك، ويعده (شطارة ولوذعية)، يقول المسيري: منذ أن قام هذا النظام الدولي باقتسام العالم وهو يصول ويجول، لكنه لا ينشر العدل ولا الاستنارة، بل انغمس في عمليات (إبادة منهجية) لم يعرفها التاريخ البشري من قبل، مثل إبادة سكان الأمريكيتين، وعمليات ترانسفير (نقل السود الأفارقة)، ونقل العناصر البشرية، غير المرغوب فيها، مثل (المجرمين، اليهود، الفائض البشري، الثوريين، الفاسدين اجتماعيًّا) تم نقلهم إلى (جيوب استيطانية)، ولقد خاض هذا

(١) مجلة قضايا دولية، العدد (٢٥٦) ص (٢٦) ١٤١٥/٦/٢٤هـ.

obeikandl.com

النظـام الدولي حروب الأفيـون الأولى والثانية ضد الصين، كي يحقـق أرباحًا اقتصادية كبيرة، ثم قام بنهـب ثروات الشعوب، بشكل منظم لم يعرف له التاريخ مثيلًا.

ومع ظهور الحركات الوطنية للتحرير في المستعمرات، ابتداءً مـن أربعينيات القـرن العشرين، فقد قام النظـام (الأمبريالي العالمـي) بضرب هذه الحركات بعنـف شديد، وفي الخمسينيات حاول الالتفاف عليهـا، بأن منحها (استقـلالًا اسميًّا)، فأسس نظمًا سياسيـة (عملية) مستعدة لتمنحه امتيازات تفوق ما كان يحصل عليه من (استعماره) العسكري المباشر.

إن تاريـخ النظـام العالمـي هو تاريـخ (النظـام الصناعي العسكـري) الأمبريالي الغربـي، الذي حول العـالم إلى مصدر (للطاقـة الطبيعيـة والبشريـة الرخيصـة وسوقًـا لبضائعه)، وبرغم تغير الأشكال مـن استعمار لآخر، إنه نظام عالمي واحد، يحـاول أن يفرض (بالقوة) حالة التفاوت بين الشعوب والأمم.. وقد قام هـذا النظام بغرس كل (أنواع الاستعمار) خصوصًا في عالمنـا (العربي)، كما قـام بنهب هذه المنطقة، إمـا مباشرة - أيام الاستعمار المباشر - أو من خلال (التحكم) في أسعار المواد الخـام، خصوصًا (النفط)، وعن طريـق بيع (أسلحة) ببلايين الـدولارات (لنظم) يضمن هـو بقاءها واستمرارهـا، مع علمه أنها غير قادرة على استخدام هذا السلاح... ا.هـ.

إنـه (استحمـار) من قبـل الإنسـان لأخيه الإنسـان، وأي استحمار؟

لـو كان الغرب الصناعي محتاجًا لهان الأمر، أما إنه متخم، ينهـب ويسلـب من فقـير فهنـا الطامة، ولقـد أجـاد سارتر حين حمـل الغرب شعوبًا وحكومات جريمـة النهب والسلب، ليبني مدنًا ومطـارات، وشوارع وجامعـات، بينما المستعمـرات تشكو الحاجة لأبسـط أمور الحياة، أتيحت لي فرصة زيارة أفريقيا شرقًا وغربًا وجنوبًا، فرأيت بأم عيني عواصم الشوارع الفرعية غير (مسفلتة) وغير منارة، والمياه الصحية تجري (مكشوفة) غير مغطاة، والفقر الأسود يشمل أكثر من تسعين بالمائة من هذه الشعوب.

استعمرت فرنسـا (جزر القمر) قرنًا ونصف القرن، فلما خرجت لم تترك مدرسة ولا مستشفى ولا ماكنة لتوليد الكهرباء، فماذا كانت تفعل خلال (١٦٠ عامًا)؟

شـركات النفـط في العراق كانت تدفع للعـراق (٤) بنسات عـن كل برميل، الشـركات الغربية مازالت تدفـع لنا (٥٠، ٦٠) دولارًا للبرميـل، وهـي تتباكى وتنوح، لكنها تدفـع للدول الغربية (كضريبة) (٢٠٠) دولار دون بكاء ولا لطم للخدود، إنهم ينهبون ولا يسرقـون، السرقة في السر والنهب في العلن، وهناك من يعين ويبارك على قاعدة (احملني أحملك، استر عليَّ أستر عليك).

من الإزاحة إلى الإزالة

تقدم الحديث عن (الإزاحة) مصطلح متواضع تزيح إنسانًا وتحتل مكانه، لكني أجد مصطلحًا (خشنًا) هو الإزالة، تصارع فردًا أو تصارع جماعة أختها فتزيلها، تقتلعها من جذورها وتبعدها.. الغرب يقصفها بالمصطلحات يوميًا...

الأكاديمي العربي الأصل د. مازن موفق الأستاذ في جامعة (كالفورنيا) الأمريكية يتحدث عن التنحية وشروطها، وعن القطيعة مع التاريخ والمجتمع البشري، فيقول[1]: إن التنحية تنظر لنفسها (بغرور بالغ) في كونها وضعت (نهاية للتاريخ)، فلم يعد ممكنًا أن تكون هناك منظومة (أفضل مما أخرجته الوضعية المادية)، كما تؤمن بمفهوم (التقدم الانفرادي) وعلى (الآخرين) أما (الاتباع التقليدي) فإن مانعوا فتجب (إزالتهم)، وتترافق نظرة (التقدم) على شكل خط بياني (صاعد) مع (الازدراء) لكل ما سبق من تجارب البشر.

ولو سلمنا بأطروحة (التقدم الخطي) فإن المنطق يقتضي احترام (النقاط الأولى) على أنها أفضت لما بعدها، والتواضع لنقطة (الحاضر) على أن هناك ما بعدها، ولكن يضع مفهوم التقدم (نقطة فصل نكدي) مع الماضي بوصفه (مكروهًا

(١) إشكالية التنحية/ لجماعة من الباحثين من (٣٤) طبعة مركز البحوث بقطر عام ٢٠٠٨م.

obeikandl.com

مذمومًا محتقرًا)، وهو ما استطاعت النهضة الأوروبية أن (تطلقه) من غير رجعة حسب ظنها وزعمها.. وهكذا.. فإن (المفهوم التنموي) يقبع (ذهنيًّا) بين نقطتي (فصل): الأولى تمثل (ماضٍ تافه متخلف)، ونقطة فصل مستقبلية، قد وصلها الغرب فأحكم (ختم نهاية التاريخ)..

وهكذا ترعرع مفهوم (التنمية الحداثية) في بيئة (غرور صبياني) تجهل إنجازات كافة الحضارات السابقة، التي مهدت للحضارة الغربية، بشكل مباشر أو غير مباشر، فحضارة الغرب (تزدري الأوضاع) للحضارات الأخرى، التي لم توافها فرصة (إتمام رحلتها) فتوقف إنجازها عند نقطة معينة.

ويشار هنا إلى أن أثر ذوي العلم من المؤرخين وغيرهم ممن يرفض المفاهيم (الفجة للتقدم)، التي (ينعق بها الساسة ويرددها العامة).. إنهم يؤكدون: أن جملة من الشروط الموضوعية كانت تقف على مسرح التاريخ البشري وبين أقوام وحضارات مختلفة، ثم (مالت الكفة) لصالح أوروبا، أي أن (الكمون التغييري التحسيني) كان موجودًا في كتل (حضارية مختلفة)، ولم يكن مقتصرًا على أوروبا، كما يذهب بعضهم - ربما أصبح القول الراجح -: إن حدوث النهضة في أوروبا لم يكن أكثر من تحقيق فرصة مواتية...

فإذا كانت هذه بعض صفات (التنمية) -في مفهومها الغربي- فإنـه تجب الإشارة هنا إلى إشكالية إطـلاق مصطلح التنمية على مصطلـح (DEVELOPMENT)، فإن كلمة التنمية ذات (ظل لطيف بالعربية)، والأليق وصف التنمية ضمن سياقها الحضاري الحداثي بأنها (سرطنة) نظرًا لتكاثرها العنيف... ا.هـ.

تتكاثـر الاكتشافات وتتزاحم، فمن جنـون البقر إلى جنون العظمـة إلى نهاية التاريخ، ونهايـة الأدب ونهاية الجغرافية، إلى التقـدم المطرد... إلخ. من ألف بـاء الحضارة: أن اللاحقة تبني علـى السابقة وتزيد، ولكل حضارة إبـداع يحق لها أن تباهي به، فلمـاذا تتنكر حضـارة اليوم لـكل حضارات العـالم وتحتقرها، وتحتقـر أهلها، ولا تكتفي بذلك حتـى تدخل مع ما تبقى منها في صراعات ربما كان الدافع الأكبر جنون العظمة ومحاولة السيطرة الكاملة، أهذا هو الأفضل لدى الغرب وحضارته وإنسانه؟

معطيات حضارية عظيمة

يوجد للبشر ألف سبب للصراع والتطاحن، فهل من (معطيات جديدة) يقدمها الغرب للتنازع والتهارش؟ ألا يكفي الموجود؟

هناك (خطة غربية) عمرها جاوز القرن، لكن دولابها مازال يدور كدوران المغـزل، وما دام (يغزل) لكن ليس صوفًا ولا قطنًا، ولكن (فتن) كقطع الليل المظلم - كما ورد في السنة المطهرة -.

ملخص القضية[1]: (بيزمان) رئيس الحكومة البريطانية عام ١٩٠٧م - قبل الحرب العالمية الأولى - شكل لجنة لدراسة الأسباب التي تعمل لإسقاط واندثار (الإمبراطوريات) الكبرى كي تتجنب الإمبراطورية البريطانية هذا المصير، وقد نشرت اللجنة توصياتها، التي جمعت أبرز خبراء بريطانيا في العلوم السياسية والتاريخ والاقتصاد، ومن أهم التوصيات:

- إن أخطر المناطق - على النفوذ البريطاني - تلك المنطقة الممتدة من المحيط الأطلسي إلى الخليج العربي - أي العالم العربي - لأن شعبها تتوافر لديه كل خصائص (الأمة الواحدة)، والخطر كل الخطر أن يدرك شعبها هذه (الحقيقة)، وأن يسعى لإقامة دولة متحدة، تعيش في هذه المنطقة الحيوية من العالم.

ومن أجل منع قيام هذه الدولة العربية، تقترح اللجنة ما يلي:

أ) تقسيم المنطقة إلى دول صغيرة، تقوم على أساس القبلية أو العرقية أو الطائفية... ويشعل بينها (الخلاف) قدر المستطاع، وأن تفصل عن الشعب الزنجي والبربر، الواقع جنوبها.

ب) تعميق (التجزئة) بينها جغرافيًا وروحيًّا وسياسيًّا واقتصاديًّا حتى تصبح - هذه الأمور - وكأنها شيء طبيعي.

ج) إقامة (حاز بشري غريب) في المنطقة، يكون شرق السويس، ليفصل بين شرق وغرب هذه المنطقة، ثم يستنزف ثرواتها..

(١) صحيفة الخليج العدد ٦٤٩٧ في ١٩٩٧/٣/٣م.

هـذه (الخطـة الحضارية) مقررة قبل أكـثر من (قرن)، ويجري تنفيذها بندًا بعد بند..

يعلق كاتب المقال: إن العـرب يتابعون ويتأملون دون القيام بـأي فعـل مضاد، بل أحيانًـا كانوا شركاء عن وعـي أو دونه، في تحقيق أغلب بنود هذه التوصيات وغيرها... ا.هـ.

واليوم فالمطلوب للعـرب أن تقسم دولهم من السودان إلى العراق ومن الصومال إلى فلسطين، وفي نفس الوقت أقام الغرب إسرائيـل، فتجمع كل يهود العالم وتهدد المنطقة بحروب متصلة كل (١٠) سنوات.

إن الغـرب اليـوم يتفـنن بإشعـال الحـروب والصراعات المحليـة، ولديهم (كلب مسعور) مستعد لنهش الكل، فإن لم يجد راح (يعوي) كما يفعل الكلب عندما يجد صورته في الماء!

ومع ذلك يتساءلون: لماذا يكرهنا العالم ونحن طيبون؟

إن العـالم اليوم يعاني من صراعـات وتوترات لا نهاية لها، والمطلـوب إطفاء الحرائق وليس (صب الزيت عليها)، ولا تهييج الأقليـات باسـم (تقريـر المصـير)، فمتى فتح هـذا الباب فلن يغلـق، ففي العالم (خمسـ آلاف) قومية تشكـو وتنوح ليل نهار، فـإذا وجدت من يشجعها فستشعـل صدامات وصراعات ومن لا يصدق فلينظـر للصومال وأفريقيا وحزب العمال الكردستاني، ففي ذلك عبرة، وأي عبرة؟!

عندما يتفلسف اللص

الإنسان يستطيع - بكل سهولة - أن يخفي مطامعه وطموحاته وجشعه، ولا يعجزه أن يفلسف النهب والسلب، وشن حروب محلية وكونية (جان جاك سرفان) يصور هذا الأسلوب الحضاري على الوجه الآتي: لا رأسمالية دون أسواق خارجية، ولا أسواق خارجية دون الوصول إلى مرحلة (معينة من تطور الإنتاج)، ولا يمكن تصور أسواق خارجية دون سيطرة سياسية واقتصادية للدولة الرأسمالية على هذه الأسواق وحمايتها[1]... ا.هـ.

قضية منطقية (محبوكة)، فأين المفر؟

وهل (الرأسمالية) قدر رباني على العالم قبوله أو الموت جوعًا وعطشًا ونكدًا؟

دكتور رجاء جارودي يصور (خطة النهب) على الوجه الآتي: يرسل الغرب العلماني (المبشر الديني)، ثم يتبعه الشركة التجارية، ثم يرسل (الجيش) أخيرًا.

الرئيس الكيني (جو موكنياتا) يرسم صورة للنهب في بلاده، فيقول: جاء الإنسان الغربي إلى بلادنا يحمل (الإنجيل) وكانت الأرض بأيدينا، وبعد قليل صار الإنجيل بأيدينا، وصارت أرضنا بأيدي الإنسان الغربي.

(١) التحدي العالمي/ جان جاك سرفان، ترجمة إبراهيم العريس ص (٣٦)، طبعة أولى.

الفيلسوف نيتشه يقول: إن الغرب (صنك شعارًا): اجمع اجمع ذلك هو الشريعة والقانون... يقصد اجمع المال فهو كل شيء... من هذه اللعب: ارفع يا غرب صادراتك واهبط إلى الأرض بثمن صادرات العالم الثالث، وانقذ (الجوعى) لتكتب في سجل المحسنين..

الغرب أو أغنياؤه من (٢٠٪) يسيطرون على ٨٠٪ من ثروة العالم، وبعض الشركات الكبرى مثل شركات النفط والسيارات والطائرات وشركات الأدوية رأسمال شركة واحدة يزيد على ما تملكه عشرات بل مئات الدول الفقيرة، ومع ذلك فثمة سياسة (مخيفة)، فصادرات الدول الصناعية في صعود مستمر، أما صادرات الدول الفقيرة فهي في هبوط متواصل، وهذه عينة من (تصنيع الفقر) والكل ساكت، وربما (يستلذ) هذه اللعبة[1]:

١- تصدر بورما (الرز) ويشكل ٨٠٪ من صادراتها.

٢- تصدر الملايو الكاوشك الطبيعي بنسبة ٨٠٪ من صادراتها.

٣- تصدر نامبيا (الفول) ويشكل نسبة ٩٠٪ من صادراتها.

٤- تصدر فنزويلا (النفط) ويشكل نسبة ٩٢٪ من صادراتها.

٥- دول الخليج مثل فنزويلا.

إن هذه الدول ومثلها كثير تسير بخط واضح نحو الفقر يومًا بعد يوم، فحياة شعوب هذه البلاد ترتبط بهذا الصادر أو

(١) تخوفهم أعمق: د. عبدالكريم بكار ص (٥١) طبعة ١٤١٥هـ.

obeikandl.com

ذاك، ترتفع العائدات مع الأسعار الجيدة، وتهبط أسفل سافلين إذا هبطت الأسعار.

وهـذه عينة مـن الأسعار، مما يصنعه الغـرب الصناعي، ويصدره لهذه البلاد وغيرها:

١- ماليزيـا كانت تدفع ثمانًـا لسيارة (جيب) عـام ١٩٨٥م ما يعادل (٤) أطنـان كاوشك طبيعي، بعد (١٠) سنوات صار على ماليزيا أن تدفع ثمن (١٠) أطنان ثمنًا لسيارة واحدة..

٢- الـدول التـي تصـدر (الـبن) كان ثمـن (١٤) كيسًا يشتري سيارة (جيب) وبعـد (٨) سنوات على هذه الدول دفع ثمن (٣٢) كيسًا كثمن لسيارة واحدة.

٣- مـن يريد الحصول علـى (٦) جرارات فعليـه أن يدفع ثمن (٢٥) طنًـا من المطاط عام ١٩٨٠م، فصار ثمن (٢٥) طنًا من المطاط الطبيعي يساوي ثمن (٢) جرار فقط.

وأخـيرًا كنـا في الثمانينيات نشتري السيـارة الأمريكية أو اليابانيـة الصغيرة بمبلغ (٢٠) ألـف ريال سعودي، واليوم ندفع (٧٠-٨٠) ألف ريال للحصول على سيارة جديدة.

إن بعض الصادرات - في العالم الثالث - تموت مثل صناعة (الجوت) في بنغلاديش، والصناعات المحلية تعجز عن منافسة الصناعـة الأجنبية جودة وأسعارًا، فتموت وتورث المجتمع بطالة

وفقرًا، حتى كتب أحد أساتذة جامعة كندية واسمه (ميشيل) كتابًا جعل عنوانه (عولمة الفقر)، يشرح فيه كيف يصنع الفقر وينشر في الأرض.

إن هذه السياسة ستثير من الصراعات والتوترات في العالم ما هو في غنى عنه بل لديه الكثير مما على العالم التخلص منه قبل حدوث (انفجارات) كبيرة تهز العالم هزًا وتقوض سلمه، وتدفعه نحو حروب وثورات لا نهاية لها.

متطلبات القيادة الحضارية

شهد العالم قيام (٢٦) حضارة - على حد قول تونيبي - كل حضارة تنمو وتتقدم ثم تهاجمها الأمراض فتفسح الطريق لحضارة جديدة كي تحل مكانها وتتولى الريادة والقيادة (مجال مفتوح) وتداول مشروط وليس ثمة (فيتو) يمنع.

يقول تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾.

فإذا خسرت الأمة القائدة صفاتها الجيدة فلابد من التنحي.. والسؤال: ما هي متطلبات هذه الريادة؟

د. برهان غليون أستاذ علم الاجتماع - السوري الأصل الفرنسي الجنسية - يتناول هذه المتطلبات قائلاً[1]: في كل

(١) الدولة والدين ص (٣٠٥) الطبعة الثانية ١٩٩٣م.

obeikandl.com

مرة تغيرت فيها (موازين السيطرة) العالمية، كانت الثقافات للجماعات التي نجحت في احتلال موقع (الصدارة) هي تلك التي أظهرت استعدادًا أكبر (للتضحية والفداء وميلًا أكبر للمغامرة والبحث) مع شغف أكبر وأقوى (بالجديد والمبتكر) ورغبة أعنف في اجتراح المجهول، وكان التعويض الأساسي لهذه الجماعات (القائدة) بانية المدنيات أو أنساق القيم الكبرى، التي تتغذى منها، هو (ترسيخ أقدامها في التاريخ)، وجعلها ركائز ثابتة له، وطبعها بطابعها، ومن ثم ضمان خلود ثقافتها وقيمها فيه، مع تحسين مواقعها في الحضارة، مما يعني تحسين قدرة الجماعات التي ترتبط بها على التحكم في التاريخ وضمان مستقبلها فيه، وضمان استمرارها. أما الجماعات التي لم تستطع أن تكوّن (ثقافات تشجع على التضحية) ولم تستطع أن تشارك مشاركة كبيرة في (تكوين الحضارة) فإنها تصير - في الأكثر - عرضة للذوبان في غيرها، أو تكون (الأضعف استعدادًا) للتحكم بالتاريخ، وكذلك تكوين مجتمعات مستقرة... ا.هـ.

باختصار عناصر الريادة والقيادة (كسبية) وليست فطرية، فكل من جد وجد، وربط التحضر بعنصر معين من البشر خرافة وأسطورة، فكل من تطلع لبناء حضارة وعلم بالشروط والمستلزمات وأخذ بها تقدم وتحضر، وكل من أخذ بأسباب التأخر والتخلف تأخر وتخلف، وهذا من عدالة السماء، فلا محاباة ولا يحزنون..

عندما تختفي العنصرية

العنصريــة مرض قتــال ابتليت بــه البشرية لقــرون، وما زالت أمم مصابة بجنون العظمة، فهي الخير والحضارة وكل ما تصنعــه فهو نبيل وعظيم، وكل ما لــدى الأمم الأخرى لا يساوي شيئًا، ولا يستحــق ذكرًا.. كاتبة فرنسية اسمها (صوفي بسيس) لها كتاب عنوانه: (الغرب والآخرون... تاريخ من الهيمنة)[1].

الكاتبــة حماها الله مــن مرض (العنصريــة)؛ لذا راحت تسمي الأشياء بأسمائها، وتناقش قومها فيما أطلقوه من أحكام، وهم تحت تأثير (العنصرية) وربما جنون العظمة أيضًا. وأفضل تلخيص ما جاء في نقاط:

١- لقد هيمن الغرب على العالم ابتداء من القرن (١٦).

٢- هذه الهيمنة صارت قانونًا أو بدهية - غير قابلة للمناقشة -.

٣- ينظر الغرب للعالم من خلال هذا (التفوق).

٤- مطلوب من العالم أن يسلّم بكل ذلك.

٥- بسبب هذه الرؤية فلا حوار ولا نقاش.

٦- تسأل الكاتبة: هل الغرب مستعد لتغيير نظرته؟

٧- سؤال آخر: هل أهل الجنوب مستعدون للتطور العقلاني والتنور؟

---

(١) جــرى استعراض الكتــاب من قبــل هاشم صالــح، الشــرق الأوسط في ٢٠٠٢/٣/١٢م.

٨- سؤال ثالث: هل يمكن التوصل إلى قيم كونية مشتركة تكون مقبولة من كافة الثقافات؟

٩- تعتقد الكاتبة أن الغرب أسس ذاته في (عصر النهضة) على أساس رفض كل ما ليس (بغربي)، ومن هنا رفض المصادر الشرقية وتأثيرها مثل الحضارة البابلية والكلدانية والمصرية والهندية، وهذه الحضارات غذت (الفكر اليوناني).

١٠- راح الغرب يتحدث عن (المعجزة اليونانية) وكأنها شيء نزل من السماء، بحيث لم تتأثر بأحد.

١١- لقد حذفوا واستبعدوا (الإسلام وحضارته) وكل ما جاء به، علمًا بأن الغرب قرأ الكثير من التراث اليوناني عن طريق المسلمين، وليس بطريقة (مباشرة).

١٢- يريد الغرب القول: لسنا ندين لأحد في نهضتنا.

١٣- يطرح الغرب: إن عصر النهضة (جب ما قبله)، وهو يشكل قطيعة (مطلقة) مع العصور الوسطى.

١٤- من المعروف أن العصور الوسطى كانت عصور نهضة المسلمين، ومن هنا جاء سبب الإلغاء.

١٥- يؤكد الغرب ويردد تلاميذه: أن الحداثة ابتدأت في الغرب، وكذلك التاريخ، ومن هنا جاء الانطلاق، دون علاقة بزمن سابق.

١٦- لقد كان القرن (١٩) هو قرن (سيادة أوروبا) على العالم كله... ا.هـ.

obeikandl.com

الغـرب - بشكل عام - معجب بنفسه وحضارته، وهو يريد قيـادة العالم حسب قيمه وثقافتـه، والويل لمن يرفض هذه القيم وهذه القيادة..

مطلوب من الغرب القليل من التواضع والكثير من العدالة، والكفـر بالعنصرية وبمن يؤمن بها ويجعلها الأساس في علاقاته مع غيره.

مأساة الحضارة الغربية

كتب هاشم صالح عن مأساة الحضارة الغربية، فركز على الانفصال بين الدين والعلم، وألخص ما جاء في المقال[1]:

١- تشعـر شخصيـات كثيرة روحيـة وعلمية وفكريـة في الغرب (بكثير من القلق) مـن الاتجاه (الوضعي العلموي) الذي لا يعترف إلا (بالتركيبة المادية) وينكر ويتجاهل كل ما سواها.

٢- هـذا الاتجـاه ينكـر (القيم الروحيـة) بحجة أنهـا لا يمكن البرهنة عليها تجريبيًا في المختبر.

٣- إن هـذا التقديس للعلم والمغـالاة فيه، مع التسليم بأنه صانع حضـارة اليوم؛ لـذا فالإشكال ليـس في ذات العلم وإنما في الانحـراف في (النزعة العلمويـة) وفي (الوضعية الجافة). تحديدًا... ليس الإشكال في (ذات العلم) بل في فلسفته التي يمكن أن نطلق عليها (العلموية).

(١) صحيفة الشرق الأوسط ٢٠٠٢/٤/٥م.

obeikandl.com

٤- تقـوم الفلسفة الحديثـة على تركيزها علـى دراسة الإنسان والحيـاة والكـون، ومن هنا جـاءت نهضة (العلـوم).. لكن هذا التقدم جاء على حساب حقائق أخرى تتجاوز الإنسان، وتعلو عليه.

٥- هنـاك حقائـق - غير الحقائـق المادية والقوانـين العلمية - جرى تجاهلها.

٦- يمكـن القول: إن فلسفة (القـرن الوسطى) قد أهملت العلم المـادي، وجاءت الفلسفة الحديثة لتهمـل الجانب (الروحي المتعالي)، وهكـذا انتقلنا من (شطط) لآخـر، ومن إهمال لإهمال آخر، ومن غلو لغلو آخر..

٧- والآن آن الأوان لتصحيـح الوضـع، خصوصًـا بعدما وصلت الحداثة إلى مداها في الاتجاه المادي..

٨- كذلك بلغت (الشهوات الحسية الاستهلاكية) وحتى الشذوذ النهاية.

٩- وهكـذا بدأ أفـق الإيمان غائبًا كليًا عـن ثقافة الغرب، بل لم يعد (فلاسفة) الحداثة يذكرونـه إطلاقًا، وهم يعدونه من القديم الذي عفا عليه الزمن... ففلاسفة مثل سارتر وفوكو وهابر وأمثالهم نسوا أو تناسوا الإيمان.

١٠- إنه لا يخطر ببال أحدهم أن يطرح قضية الإيمان أو الدين أو الروحانيـات، والحجـة: لا يوجـد في الكون سـوى الوضع المادي الذي نعيش فيه.

١١- علمًا بـأن فلاسفة (الحداثة الأوائـل) كانوا يقرون بوجود علاقة بـين العلم والإيمان، فديكارت مثـلاً يبرهن عقلانيًّا على وجود الله، وخلود الروح...

١٢- مـن هنا جاء هجوم (باسـكال)، إنه ذلـك العبقري الذي أعطى ثقة في نهاية المطاف للإيمان (على حساب العلم).

١٣- إن علمـاء كبـار مثـل كانط وهيغـل يتحدثون عـن الإيمان والديـن، دون أن يعدوا ذلك شيئًا رجعيًّا، وقد قدموا تصورًا مطلقًـا أو معصومًا عن العقل، لدرجة أن حل محل الدين في ثقافة الغرب.

١٤- إن الفلسفـة (الوضعيـة) - التي تسيطر علـى الغرب اليوم - لا تبعد الإنسان عن الرؤية الدينية للعالم فقط، وإنما راحت تنسيه كل اهتمام أخلاقي. فالعالم في مختبره - من كثرة لهاثه - وراء مكتشف علمي جديد - ينسى غاية العلم، وهي (خدمة الإنسان)، بـل بلغ الغرور درجة مخيفة، حيث راح يفكر باستنساخ الإنسان، فأين صارت الأخلاق؟ ألم تنفصل كليًّا عن العلم؟

١٥- ألم ينفصـل العلم عن الأخلاق وينحـرف؟ ألا ينبغي وجود ذرية روحية؟ علينا أن نقول للعلم: ما هي الحدود التي ينبغي له أن يتوقف عندها!

١٦- إن العلـم - لـو لم ينفصـل - عن الإيمـان (في الغرب) لما وصلـت الحضارة إلى ما وصلت إليه مـن (نزعات عدمية)

خطيرة، إذ لم تعد هناك (قيم أخلاقية) مضمونة أو مؤكدة..

١٧- لقد وصلنا إلى أن كل شيء يتساوى مع كل شيء، فالشذوذ الجنسي صار مشروعًا أو طبيعيًّا، حتى راح (الشواذ) يطالبون بحقهم في تبني الأطفال، إنها انحرافات كبيرة - رغم الإنجازات الكبيرة -.

١٨- هناك اليوم من يشخص الأزمة الغربية على أساس أنها متولدة عن ذلك (الانفصال النكد) بين الإيمان والعقل الفلسفي، على مدار ثلاثة قرون مضت أخيرًا.

١٩- معلوم أن العقل متى انفلت - من عقاله - وتحرر من كافة الروابط، ومتى ما حرم من (نور الإيمان) فإنه يصبح مجنونًا، ويخبط خبط عشواء.. وعندها ستكون النتائج كارثية، وهذا ما حصل، حتى شهد القرن العشرين حربين عالميتين، ومجازر استعمارية كمثل ما حصل لهيروشيما ونكازاكي من مدن اليابان، التي ضربت بقنابل نووية، كما أفرزت الحضارة الغربية النازية الألمانية والفاشية الإيطالية والصهيونية اليهودية.

لقد أحصى المستشار بريجنسكي قتل أكثر من (١٧٦) مليونًا من البشر خلال القرن العشرين.

٢٠- يتساءل الكاتب: هل سيعود الغرب إلى الإيمان من جديد؟ وهل سيتخلى عن عنجهيته وغروره؟

هل سيتوصل إلى أن (الإيمان) متى كان واسعًا مستنيرًا، فإنه لا يضير العقل ولا يحد من حريته، بل يفتتح أمامه آفاقًا واسعة من الأمل، ويخلع على أعماله بعدًا روحيًّا أخلاقيًّا مفيدًا... ا.هـ.

الإنسان: جسم وعقل وروح وعواطف، فمتى نمت هذه المكونات نموًا متزامنًا أنتجت إنسانًا (متوازنًا)، فإذا نما مكون واحد على حساب غيره فقد الإنسان (التوازن)، وهذا يصدق على الحضارة كذلك، فتفقد توازنها عند توسع مكون وضمور آخر، وهذا ما تشكو منه حضارة اليوم.

العقل صنم الفلاسفة الأكبر

يقول نيتشه[1]: إن صنم الفلاسفة الأكبر هو العقل، آمنوا به وبقدرته على اكتشاف (الحقيقة والوجود)، فجعلوه الحاكم المطلق، وأعدوا قوانينه هي قوانين الوجود، ثم فصلوه عن الحياة، بحيث جعلوه فوق (الوجود) وليس جزءًا منه، يعبر عن ناحية من نواحيه العديدة.. البعض يقول: إن مبادئه (متعالية قبلية) أي سابقة على التجربة، وعليها تقاس (محتويات

(١) نحن والصديق اللدود للكاتب، ص (٤١) طبعة أولى ١٤١٧هـ، دار الحكمة.

التجربة) وبها وحدها تدرك، وقال بعض آخر: إن العالم جميعه داخل العقل وفي باطنه، فريق ثالث يرى أن التطور التاريخي ليس سوى العقل، إذ هو يعرض نفسه، وهكذا جعلوا من (العقل إلهًا) ذا سلطة إلهية وجوهر إلهي... ا.هـ.

وقد وجدت في (أرشيفي المتواضع) نصوصًا تدور حول العقل وقدراته، ما يستطيع إدراكه وما هو فوق ذلك...

فهذا الإمام الشاطبي يقول[1]: ليس كل ما يقضي به العقل يكون (حقًا)؛ لذا نرى الناس يرتضون اليوم (مذهبًا) ثم يرجعون عنه غدًا، ثم يصيرون بعده إلى رأي ثالث، ولو كان كل ما يقتضي به (حقًا)، في إصلاح معاش الخلق ومعادهم، لم يكن لبعثة الرسل عليهم السلام فائدة، ولعدت الرسالات (عبثًا) لا معنى له، ومعلوم أن كل هذا باطل... ا.هـ.

ابن العربي يبحث في إمكانات العقل، فيقول[2]: الزعم بأن العقل قادر (قدرة مطلقة) على إدراك أو تحصيل كافة المعلومات، دعوة حمقاء، لا تقوم على ساق، إذ إنه ليس لنا أن ندعي أن للعقل مكانًا في الإدراك، يتيح له أن يحيط بكل شيء بمفرده واستقلاله، فهو متواضع في مجال إدراكه؛ لأنه يوجد فوقه

(١) الاعتصام ٢/٥٦٤.

(٢) آراء أبي بكر بن العربي الكلامية، د. عمار الطالبي ص (٤٤) الناشر الشركة الوطنية.

(طـور عالٍ) عليه، لا يقـوى على إدراكه، ولا على أن يطرق بابه، والذين يقدرون على طـرق بابه والنفاذ إليه إنما هم (الأنبياء) الذين أوتوا وسائل توضيح حقائقه والتعبير عن قانونه... ا.هـ.

عقـل الإنسان له قدرات هائلـة، لكنَّ هناك أمورًا لا يستقل بهـا، ولها مصادرها، وقد قام ابن القيم بتفصيل ذلك فقال[1]: إذا كان العقل يـدرك بعض الأفعال وقيمتها، فمن أين له معرفة (الله تعـالى) بأسمائه وصفاته، والآية التـي تعرَّف بها الله إلى عبـاده، علـى ألسنة رسله، ومـن أين له معرفـة تفاصيل شرعه ودينـه، الـذي شرعه لعباده، ومن أين لـه تفاصيل مواقع محبته ورضـاه وسخطـه وكراهيته، ومـن أين له معرفـة ثوابه وعقابه، ومـا أعد لأوليائه، وما أعـد لأعدائه، ومقاديـر الثواب والعقاب وكيفيتهما ودرجاتهما، ومن أين له معرفة الطيب الذي لم يظهر الله عليه أحدًا من خلقه إلا من ارتضاه من رسله، إلى غير ذلك مما جاءت بـه الرسل، فكيف تكون معرفـة حسن بعض الأفعال وقبحها بالعقل، مغنيًا عما جاءت به الرسل... ا.هـ.

وأختـم بما ذكره ابن خلدون فهو يرى أن العقل هو من أكبر مخلوقات الله لكنه ميزان دقيق وضع لوزن المجوهرات والأحجار الكريمة، فمن أراد أن يستعملـه لوزن أشياء ثقيلة كالحجر فإنه يفسده ويعطله.

(١) مفتاح دار السعادة ١١٧/٢.